دار الحديث العراقية

تفسير سورة

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين اللهم إنَّا نسألك رحمتك فهي خيرٌ مما يجمعون .

أمّا بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين)) بهذا سمّاها البخاريُّ في صحيحه وكذا غيره من أهل الحديث ، وكذا في بعض المصاحف ، وكثيرٌ من المصاحب وكتب التفسير على تسميتها بـ ((سورة المطففين)) اختصاراً .

نزولها : نزلت بمكة ، وهى آخر ما نزل بمكة . عدد آياتها : ست وثلاثون آية وعدد كلماتها : مائة كلمة ، وتسع كلمات وعدد حروفها : أربعمائة وثلاثون حرفاً .

أما مناسبتها لما قبلها

فقد جاء هناك: ((وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)) وذكر هنا ما يكتبه الحافظون : ((كِتابٌ مَرْقُومٌ)) يُجعل فى عليين أو فى سجّين .

وأجملتْ سورة الإنفطار التي سبقت سورة ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين)) مصيرَ الفجار ، ومصير الأبرار .

فجاءت سورة ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين)) مفصلةً شيئاً من هذا المصير ، كما جاءت كاشفةً مُبيّنةً عن وجوهٍ من فجور الفجار ، كالتطفيف فى الكيل والميزان ، والتكذيب بيوم الدين ، والاتهام لرسول الله ، ولآيات الله .

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين كلمة (ويل) توعّدٌ للمطففين بالويل على خطيئة التطفيف التي تنتشر عند تّجار السوء لمن لم يراقب الله ، وهي صفة إنقاص الآخرين حقوقَهم الحسّية والمعنوية فغمطُ النَّاس من التطفيف . فويلٌ لهم بمعنى الْهَلَاكُ وَالدَّمَار لهم .

ووَيْلٌ كَلِمَةُ دُعَاءٍ بِسوء الْحَال ، وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ وَعِيدٌ بِالْعِقَابِ وَتَقْرِيع .

والتطفيف مأخوذ من الشيء الطفيف ، أي : القليل ، وفيه إشارة إلى أنَّهم بلغوا من دنائتهم أنْ يَغشّوا الناس بالشيء الطفيف أي اليسير ، فإذا كالوا أو وزنوا أخذوا شيئاً طفيفاً ، أي : يسيراً وأضافوه إلى مالهم . وقد جاء السياق مُفسّراً التطفيف فقال تعالى : ((الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)) . فالمطفف من يستوفي لنفسه من الناس فيأخذ حقه وافياً وينقص لغيره ؛ فجمعوا بين الشُّح والبخل .

قال أهل التفسير : ((وَالتَّقْدِيمُ فِي افْتِتَاحِيَّةِ هَذِهِ السُّورَةِ بِالْوَيْلِ لِلْمُطَفِّفِينَ ، يُشْعِرُ بِشِدَّةِ خَطَرِ هَذَا الْعَمَلِ وفداحته، وَهُوَ أمر خَطِيرٌ حقاً ؛ لِأَنَّهُ مِقْيَاسُ اقْتِصَادِ الْعَالَمِ وَمِيزَانُ التَّعَامُلِ ، فَإِذَا اخْتَلَّ أَحْدَثَ خَلَلًا فِي اقْتِصَادِهِ ، وَبِالتَّالِي اخْتِلَالٌ فِي التَّعَامُلِ ، وَهُوَ فَسَادٌ كَبِيرٌ)) .
والآية الكريمة أصلٌ في النهي عن الظلم مع الدعوة إلى العدل والإنصاف وزرع الهمة في قلوب الآخرين على أنْ يكون تعامله مع الآخرين مثلما يريد أنْ يعاملوه فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الصَّلَاةَ جَامِعَةً ، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا ، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ مُهْلِكَتِي ،

ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْه .

ومعناه : أي : أنْ يفعل الشيء الذي يريد أن يفعله الناس معه .

والتطفيف ليس خاصاً بالوزن والكيل والذرع ، بل كل تنقيص من حقوق الآخرين تطفيف أخرج ابن المبارك في كتابه الزهد من قول سلمان الفارسي ((الصَّلَاةُ مِكْيَالٌ ، فَمَنْ أَوْفَى أُوفِيَ لَهُ ، وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَالَ اللَّهُ فِي الْمُطَفِّفِينَ)) ولذا كان أسوأُ النّاس سرقةً الذي يسرق في صلاته . فالتطفيفُ إذن في كل شيء ، وأقبحُ التطفيف التطفيفُ مع القرآن حينما لا تعطيه فاضل وقتك ولا فضول وقتك ، ومن التطفيف أنْ لا تعطي الحروف حقها ومستحقها ، ومن التطفيف أن لا تعطي القرآن نصيبه من العمل والتطبيق .

إذن التَّطْفِيفُ يَجْمَعُ ظُلْمًا وَاخْتِلَاسًا وَلُؤْمًا .

فالوعيد في قوله تعالى : ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)) عامٌّ في كل صور التطفيف .

أيها الأخ الكريم قَدْ سَمِعْتَ مَا قَالَ اللَّهُ فِي الْمُطَفِّفِينَ، فَمَا ظَنُّكَ بمن يأْخُذُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ بِلَا كَيْلٍ وَلَا وَزْنٍ؟ ! وما أكثر هذا الظلم في كل مكان .

وقوله : ((الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)) أي : إذا كان الحق لهم يأخذونه وافياً غير منقوص ، وجاء التعبير (عَلَى النَّاسِ) وليس (من الناس) لأنَّ (على) أقوى في الدلالة على المقصود من كلمة (من) ففي (على) معنى الاستعلاء ، ولا شك أنه لم يطفف حتى تكبر على الحق : تكبر على حق الله وعلى حق الناس ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول : ((الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاس)) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود .

وقوله تعالى : ((وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)) أي : وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون . والفعلان "كَالُوا" وَ "وَزَنوا" مُتَعَدِّيان، و (هُمْ) فِي مَحَلِّ نَصْبٍ ، ولا يصح غير هذا مما أعرضت عن ذكره كما أن الصواب يؤيده رسم المصحف .

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ-تَعَالَى-بِالْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ؛ ليشمل كل الحقوق ، فَقَالَ : ((وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا)) ، وَقَالَ : ((وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)) ، وَقَالَ : ((وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)) .
وَقد أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمَ شُعَيْبٍ ودَمَّرهم عَلَى مَا كَانُوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ لشناعة هذه الجريمة .

ثم جاء التهديد والتوبيخ والتقريع فقال تعالى : ((أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)) وهذه آية عظيمة ، وهذا السؤال في معنى الاستنكار لفعلهم ، بمعنى : أنَّ التطفيفَ فعلُ من لا يرجو لقاء الله ؛ فلو كانوا يظنَّون لقاء الله مجردَ ظن لزجرهم عن فعلهم القبيح فكيف ، وأنَّ اللقاءَ والحسابَ والجزاءَ والقصاصَ أمرٌ مقطوعٌ به . والسياق كله تنفير من فعل التطفيف .
وَالظَّنُّ: مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ الْمَشْهُورِ وَهُوَ اعْتِقَاد وُقُوع الشَّيْء اعْتِقَادًا رَاجِحًا عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى عن الذين كفروا : ((إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)) .
وكلمة (أُولَئِكَ) للإشارة إلى البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله بعيدون عن الفضل بعيدون عن الذكر الطيّب بعيدون عن الإيمان بالآخرة .
قال ابن كثير : ((أَيْ: أَمَا يخافُ أُولَئِكَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَي مَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ ، فِي يَوْمٍ عَظِيمِ الْهَوْلِ ، كَثِيرِ الْفَزَعِ ، جَلِيلِ الْخَطْبِ ، مَنْ خَسِرَ فِيهِ أُدْخِلَ نَارًا حَامِيَةً؟)) .
وتأمل هنا فقد وصف الله يوم القيامة بالعظيم ، فقال تعالى : ((أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)) فهو يومٌ عظيمٌ بطوله ، وهو عظيم بمدّته وهو عظيم بالحوادث التي تكون فيه وهو عظيم بالقدرة الإلهية التامة ، ثم ذكر الله صورةً من عظمة هذا اليوم فقال : ((يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِين)) .
وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ : ((لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)) لَامُ التَّوْقِيتِ مِثْلُ : ((أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)) .
((يَقُوم النَّاس)) مِنْ قُبُورهمْ ((لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)) أي : الْخَلَائِق لِأَجْلِ أَمْره وَحِسَابه وَجَزَائِهِ ، فبعد أنْ تبعثر القبور يقوم النَّاس وتنفخ الأرواح في الأجساد ؛ فيكون البعث والنشر بعد الطي والقبر ؛

فيقف النَّاس في أرض العرصات قياماً لله رب العالمين يقفون خوفاً وحياءً وخجلاً وانتظاراً للحساب ، وبعدَ ذلك المصيرُ .

وَاللَّامُ فِي ((لِرَبِّ الْعالَمِينَ)) بمعنى لِلْأَجْلِ ، أَي لأجل ربوبيته وَتَلَقِّي حُكْمِهِ.

وَالتَّعْبِيرُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِوَصْفِ (رَبِّ الْعَالَمِينَ) لِاسْتِحْضَارِ عَظَمَتِهِ بِأَنَّهُ مَالِكٌ أَصْنَافَ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَالألف اللَّامُ فِي الْعالَمِينَ لِلِاسْتِغْرَاقِ .

يَقُومُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرلاً فِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ ، هو أصعب المواقف : حَرجٍ ضَيّقٍ ضنَكٍ عَلَى الْمُجْرِمِ، وَيَغْشَاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ–مَا تَعْجزُ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ عَنْهُ ، اللهم إنا نعوذ بك مِنْ ضِيقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَة .

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه بَابُ {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ المُنْذِرِ ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ ، قَالَ : حَدَّثَنِي مَالِكٌ ، عَنْ نَافِعٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ} ((حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ)) .

فالعرقُ يتصبب من النّاس من شدة الكرب وطول الموقف ، وهذا السياق من أعظم التهديد فالمطالبُ بحق من طففَ منهم هو الله ؛ فالمطففُ والظالمُ والمعتدي على حقوق الناس وأمورهم يكون خصمَه يومَ القيامة اللهُ الكبيرُ المتعالُ الذي لا يخفى عليه شيء . كما أخرج البخاري في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ)) .

ثم جاء الردع والزجر عن التطفيف فقال تعالى : ((كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين)) الفجار هم أهل الفجور الذين فجروا عن أمر الله ، أي انشقوا عنه ، وخالفوه وهم الذين لم توجد فيهم صفات الأبرار ، و(كِتَاب الْفُجَّارِ) هو الكتاب الذي تكتب فيه أعماهم وأقوالهم وتروكاتهم ونياتهم و(سِجِّين) أي : في سفال وموضع منحط ، وهو السجن والضيق والضرر فهو اسم أُخذ للمبالغة في أمر السجن ، وجهنّم سجنٌ بل أعظم سجن كما قال تعالى : ((وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)) فهي سجن يُحصرون فيه ، وتؤصد عليهم ، قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ : إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللَّهُ بِكُلِّ جَبَّارٍ وَكُلِّ شَيْطَانٍ وَكُلِّ مَنْ كَانَ يَخَافُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا شَرَّهُ ، فَأُوثِقُوا فِي الْحَدِيدِ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ، ثُمَّ أَوْصَدُوهَا عَلَيْهِمْ ، أَيْ : أَطْبَقُوهَا –قَالَ : فَلَا وَاللَّهِ لَا تَسْتَقِرُّ أَقْدَامُهُمْ عَلَى قَرَارٍ أَبَدًا ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَنْظُرُونَ فِيهَا إِلَى أَدِيمِ سَمَاءٍ أَبَدًا ، وَلَا وَاللَّهِ لَا تَلْتَقِي جُفُونُ أَعْيُنِهِمْ عَلَى غَمْضِ نَوْمٍ أَبَدًا ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَارِدَ شَرَابٍ أَبَدًا . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

فسجين ضيقٌ وشدةٌ وكربةٌ وسفالٌ .

ثم قال تعالى : ((وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)) وهذا تعظيمٌ وتهويلٌ ، فمهما تفكر المرءُ بما عند الله من عذاب فلا يستطيع أنْ يبلغ حقيقته .

ثم جاء ذكرُ شيء عن سجين فقال تعالى : ((كِتَابٌ مَرْقُومٌ)) وهذا ليس جواباً لقوله تعالى : ((وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)) إذ سياق التهويل انتهى ثم صار الكلام عن الكتاب : ((كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)) كأنَّ الخطاب : وما هو كتاب الفجار ؟ فيكون الجواب ((كِتَابٌ مَرْقُومٌ)) وفيه إشارة إلى أنَّ هذا الكتاب قد كتب لهم فيه السجنُ والنّار والعذاب .

ومعنى (مَرْقُوم) أي : مكتوب ، لتستفيد أنَّ الكتاب مضبوطٌ لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، ولا يتلاعب فيه ؛ فالْمَرْقُومُ : الْمَكْتُوبُ كِتَابَةً بَيِّنَةً تُشْبِهُ الرَّقْمَ فِي الثَّوْبِ الْمَنْسُوجِ .

ويفيد النص أنَّه كتابٌ واضحٌ متقنٌ فيه القليل والكثير والنقير والقطمير كما قال تعالى : ((وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)) .

والمطففون في الدنيا يُزيدون ويُنقصون أمَّا في الآخرة ((كِتَابٌ مَرْقُومٌ)) فلا تطفيف فيه ولا زيادة ولا نقص ، بل هو كتابٌ دقيقٌ متقنٌ مُفصّلٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وتأتي (كلا) بمعنى حقاً كما إذا ابتُدِأ بالقراءة منها ، وهذا من بلاغة القرآن يَقُولُ : حَقًّا ((إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)) أَيْ : إِنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ لَفِي سِجِّينٍ–فِعِّيلٍ مِنَ السَّجن، وَهُوَ الضِّيقُ–كَمَا يُقَالُ: فِسِّيقٌ وَشِرِّيبٌ وَخِمِّيرٌ وَسِكِّيرٌ وغيرُها من صيغ المبالغة ، وَلِهَذَا عَظَّمَ أَمْرُهُ فَقَالَ: ((وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)) ؟ أَيْ : هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَسِجْنٌ مُقِيمٌ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ .

ثم قال تعالى : ((وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين)) وقد جاء في السياق والسباق أنَّ المطففين مكذبون بيوم الدين إما اعتقاداً وإما عملاً ؛ إذ لا يصدر التطفيف من مؤمن تام الإيمان ، والإيمان بالآخرة يجعل الإنسان أكثرَ جديةً واهتماماً في التعاطي مع قضايا الدنيا والآخرة .

وهنا جاء السياق : ((وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين)) فـ(يَوْمَئِذٍ) أي : يومَ القيامة ، ولما جاء ذكر المكذبين بيَّن الله بأي شيء يُكذّبون فقال : ((الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين)) والتكذيب بيوم الدين –وهو اليوم الذي يُدان فيه الناسُ بأعمالهم– أشنعُ عملٍ ؛ لأنَّه رأسُ الخطايا .

والآيتان : ((وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين)) فيهما حثٌّ على الدعوة إلى الله؛ إذ إنَّ المطففين بلغتهم الدعوة فكذّبوا بها .

والإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان ، وهو محفزٌ للخير ، ومنْ رحمةِ اللهِ أنَّ الله جعلَ للعباد مُعاداً ومَعاداً يُنصفُ فيه المظلومون مهما كانتِ المظلمةُ صغيرةً أم كبيرة وأينما كانتْ قال الله تعالى حاكياً عن لقمان : ((يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَل فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)) وقال تعالى : ((وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين)) إذا تأملتَ هذا أدركتَ أنَّ الجزاءَ والقصاصَ والحسابَ يومَ القيامة من عدل الله ، ومن رحمته بعباده وهو تناسقُ ما تردده في صلاتك كل يوم : ((الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)) فمن رحمته أنَّه جعل للعباد معاداً يفصل فيه ويُقتص فيه من الظالم للمظلوم ، وقد جاء هذا المعنى ظاهراً في سورة الأنعام .

فيومُ القيامةِ يومٌ يَنتصف المظلومُ منَ الظالم ، ولولا ذلك اليوم لاختل نظام الكون ولشعر الإنسان أنَّه مظلومٌ بأصل خلقه فالإعادة من رحمة الله .

قال أحدهم : ((والإنسان يرى في هذه الدنيا أشياء عديدة لم يستقم فيها الميزان ، فهذا مطفف هلك ، وقد أخذ أموال الناس بالباطل ، وهذا ظالم مات في عزٍّ ومنعة ومتعة لم يُنتقم للمظلوم منه ، وهذا محسنٌ مات ولم يكافأ على إحسانه في الدنيا ، وهذا شهيد لقي حتفه في ضيق وشدة

وكرب ولم ير بصيصاً من الرَّوْح والفرج ، فلا بدَّ إذن من دار أخرى تُردُّ فيها الحقوق لأصحابها ، ويُنتصف من الظالم للمظلوم ، وترجع الأمور فيها إلى نصابها)) .

ثم قال تعالى : ((وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيم)) فالذي يُكذّب بيوم الدين قد اتصف بصفات الشر ، وأظهرها ثلاثة :

أولاً : العداون كما في عبارة (مُعْتَدٍ) فمن يُقصّر في حق الله وحق عبيده يريد أن يمضي دون حساب أو عقاب .

ثانياً : الإثم كما في عبارة : (أَثِيم) والأثيم صيغة مبالغة من الإثم ، وهو الحوب فإذا أدمن المرء على الحرام سُمي أثيماً ، فإذا أكثر الإنسان من الإثم ، واعتاد عليه أمسى الخلاص منه صعباً وصار صفةَ ذم له لازمة كما قال تعالى : ((كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون)) .

((كَلَّا)) رَدْع وَزَجْر لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ ((بَلْ رَانَ)) غَلَبَ ((عَلَى قُلُوبهمْ)) فَغَشِيَهَا ((مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) مِن الْمَعَاصِي فَهُوَ كَالصَّدَأِ .

ثالثاً : التكذيب بالقرآن فقد جاء السياق : ((إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين)) والآية عامّة لكل من تحققت فيه هذه الصفات المرذولة ؛ لأنَّ الله يقول : ((وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيم)) .

وأساطير جمع أسطورة مأخوذ من السطر ، وهو الكتابة والتسطير ، أي : الأشياء التي سطّرها الأولون ثم نقلوها إلينا . وقصص القرآن أحسن القصص وأصحه بخلاف قصص الخرافات والوهميات ونسج الخيال . ولذلك فإنَّ المؤمن يؤمن بالغيب الذي أخبر عنه الشرع ، لذا لما جاء الحديث عن القرآن قال تعالى : ((هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)) .

ثم قال تعالى : ((كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون)) وهنا زجر عن مقولهم الباطل وفعلهم المحرم ، أي : ليست الآيات من أساطير الأولين ، بل من كلام رب العالمين ، ثم جاء البيان عن سبب وقعوهم بالآثام والتكذيب برسالات القرآن بمعنى أنَّهم كذّبوا بسبب الران الذي أصابهم .

فالرَّان غلاف يكون على قلب الإنسان ، وأشدُ منه الطبع قال تعالى : ((إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُون))

وأشد من ذلك القَفْل قال تعالى : ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) والذنوب إذا

اجتمعت على الإنسان جعلت بينه وبين الحق غشاوةً ، والران أقل من الغين فقد أخرج مسلم في صحيحه : ((إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي ، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّة)) فالغين شيءٌ يعرض على قلوب الأخيار فيدفعونه بالاستغفار .

ثم قال تعالى : ((كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون)) وفي هذه الآية بيانُ أثر الذنوب في الآخرة، بعد أنْ ذكر ضررها في الدنيا فهي حجابٌ عن الخير والحق في الدنيا حجابٌ عن الله يوم القيامة ، فالمؤمنون لما راقبوا الله في كل عملٍ لهم فهم يرونه يوم القيامة ، والفجّار أعرضوا عنه فهم لا يرونه .

والمراقبة لله في الدنيا تقود لذكره سبحانه وتعالى ، ونعيم الذكر يقود لنعيم الرؤية .

((كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون)) يحجبون عن الله تعالى فلا يرونه .

ثم قال تعالى : ((ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيم)) أي : لداخلوا النَّار

والصِّلْي معناه : الشَّي والكي والإحاطة من كل جانب : ((وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)) .

والْجَحِيمُ : النَارُ العَظِيمَةُ فِي حُفْرَةٍ عَمِيقَةٍ فهي أشد النار لجحمتها .

ثم قال تعالى : ((ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون)) أهل النار لما كذّبوا بيوم الدين ، وقالوا عن القرآن : أساطير الأولين يقال لهم يوم القيامة : ((هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون)) .

ثم قال تعالى : ((كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)) كتابُ الأبرار هو الكتاب الذي كتبت فيه أعمالهم والأبرار جمع بر والبر من يفعل البر أي الطاعة ، وذلك بوجود العقيدة الصحيحة التي هي الأساس فتنبثق عنها الأعمال ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ التَّقِيُّ بَرًّا لِأَنَّهُ بَرَّ رَبَّهُ، أَيْ : صَدَّقَهُ وَوَفَّى لَهُ بِمَا عَهِدَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى .

والأبرار عندهم العدل والإنصاف فهم لا يطففون وهم الذين لا يؤذون شيئاً حتى الذر .

وعليّون تطلق على الذين يسكنون في الأعالي ، وبضدهم السفليون الذين يسكنون في الأسافل فـ(عِلِّيِّونَ) يراد بها العلو والارتفاع ؛ فمنازل الأبرار في الجنة عاليةٌ ساميةٌ رفيعةٌ ، وَاشْتُقَّ هَذَا الِاسْمُ

مِنَ الْعُلُوِّ، وَهُوَ عُلُوٌّ اعْتِبَارِيٌّ، أَيْ : رِفْعَةٌ فِي مَرَاتِبِ الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ ثم جاءت الإشادة بمنازلهم فقال تعالى : ((وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ)) تفخيماً لمكان سكناهم في الجنة .

((وما أدراك)) وما الذي أعلمك يا محمد ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً ثم لكل فرد من أمتي الدعوة والإجابة ((ما عليون)) كيف هي وأيُّ شيءٍ صفتها .

قال ابن كثير : ((وَالظَّاهِرُ : أَنَّ عِلِّيِّينَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْعُلُوِّ ، وَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ وَارْتَفَعَ عَظُمَ وَاتَّسَعَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ مُعَظِّمًا أَمْرَهُ وَمُفَخِّمًا شَأْنَهُ : ((وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّون)) ثُمَّ قَالَ مُؤَكِّدًا لِمَا كَتَبَ لَهُمْ : ((كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)) وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ)) .

ثم قال تعالى : ((كِتَابٌ مَرْقُومٌ)) وهو تفسير لكتاب الأبرار ؛ فكتاب الأبرار كتابٌ مرقوم ، ثم قال تعالى : ((يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُون)) تحضره الملائكة ؛ لأنَّ عليين محلُّ الملائكة ، أي : يحضره ويطّلع عليه المقربون من الملائكة ويحضره الأنبياء والرسل والصديقون والشهداء ، وهذا مما فيه من بركة الأعمال الصالحة .

ثم قال تعالى : ((إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)) فالأبرارُ فوقَ كل ما يُتصور من النعيم وفوق ما يخطر على البال كما صح عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) .

وقد جاء السياق ((لَفِي نَعِيمٍ)) فكأنَّ النعيم وعاءٌ والأبرار قد وضعوا به يتنعمون بكل ما فيه . وفي الجنة النعيم المعنويُّ ، والحسيُّ ما لا يعلمه إلا الله ، ((إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)) أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا فَضْلٌ عَمِيمٌ ثم بيّن الله صورةً من هذا النعيم ، فقال تعالى: ((عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُون)) والْأَرَائِكُ جمع أريكة ، وهي السرر والمتكآت التي يقعدون عليها في الجنة ، وينظرون إلى النعيم المقيم والملك الذي لا يزول فهو بحد ذاته متعة ، وينظرون إلى الأشياء الجميلة، وينظرون إلى وجه الله ، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : ((وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ)) وينظرون إذا شاؤا إلى الكفار ليشهدوا عظيم نعمة الله عليهم .

ثم قال تعالى مبيّناً أثر هذا النعيم على وجوههم : ((تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ))

((تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)) أَيْ : تَعْرِفُ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، أَيْ: صِفَةَ التَّرَافَةِ وَالْحِشْمَةِ وَالسُّرُورِ والدِّعة وَالرِّيَاسَةِ ؛ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ .

((تَعْرِف فِي وُجُوههمْ نَضْرَة النَّعِيم)) أي : بَهْجَةَ التَّنَعُّم وحسنه .

وَإِضَافَةُ نَضْرَةَ إِلَى النَّعِيمِ مِنْ إِضَافَةِ الْمُسَبَّبِ إِلَى السَّبَبِ ، أَيِ النَّضْرَةُ وَالْبَهْجَةُ الَّتِي تَكُونُ لِوَجْهِ الْمَسْرُورِ الرَّاضِي إِذْ تَبْدُو عَلَى وَجْهِهِ مَلَامِحُ السُّرُورِ .

وهذا الجزاء من جنس العمل فكما ظهر عليهم الهديُّ الظاهر واصطبغوا بصبغة الله من الدين الحنيف في الدنيا ظهر عليهم أثر النعيم .

ثم بيّن تعالى شرابهم فقال : ((يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ)) وهذا صورة من صور النعيم أنَّ الشراب يدار عليهم في مجالسهم وأحوالهم ، وهو شرابٌ طيّبٌ لا يُذهب العقول والألباب ، مَخْتُوم إي : إنَّ هذا الرحيق يكون في أكواب وقوارير مختومة ، أي : مغلقة لا تفتح إلا لهم وهذا الختم مسك قال تعالى : ((خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)) وجاء الحث على التنافس في الدنيا على العمل الصالح ؛ فالأعمالُ الصالحةُ جعلها الله سبباً لدخول الجنَّة ومادةً لنعيمها وأصلاً لسعادتها ؛ ولأنَّ أهل التطفيف في الدنيا يتنافسون بالدرهم والدينار وبشيء طفيف يقتطعون من حق الآخرين فكان على المحسنين أنْ يتنافسوا بالخير العظيم .

((خِتَامه مِسْك)) أَيْ : آخِرُ شُرْبه تَفُوح مِنْهُ رَائِحَة الْمِسْك ، والمختوم : أى المسدود الذي لم تمسّه يد قبل أيدى هؤلاء الأبرار.

((وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)) فليرغب الرَّاغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عزَّ وجل وعدم التفريط بالأعمال الصالحة ، ومن المبادرة ترك السيئات .

وأصل التنافس : التغالب في الشيء النفيس ، وهو الذي تحرص عليه النفوس بحيث يبتغيه ويطلبه كل إنسان لنفسه خاصة .

أي : ومن أجل الحصول على ذلك الرحيق المختوم ، والنعيم المقيم فليرغب الراغبون ، وليتسابق المتسابقون ، وليتنافس المتنافسون في وجوه الخير. عن طريق المسارعة في تقديم الأعمال التي ترضي الله .

فالمقصود من الآية الكريمة : تحريض الناس وحضُّهم على تقديم العمل الصالح ، الذي يوصلهم يوم القيامة إلى أعلى الدرجات .

ثم قال تعالى : ((وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيم)) أي : إنَّ الشراب ممزوجٌ بعض ببعض و تَسْنِيم عين في الجنة ؛ روى ابن المبارك في كتاب الزهد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، فِي قَوْلِهِ : ((وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ)) قَالَ : ((تَسْنِيمٌ : عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ يَشْرَبُهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا ، وَتُمْزَجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ)) .

ثم قال تعالى : ((عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)) أي : يشرب منها المقربون ، أما غيرهم من الأبرار فإنَّها تمزج لهم مزجاً . عَيْنًا منصوب بِـ(أَمْدَحُ) مُقَدَّرًا .

ثم قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُون)) وهذه الآيات فيها توبيخٌ للمجرمين وتصبيرٌ للمؤمنين ، وأنَّ العبد لا يبلغ منزلته عند الله إلا بالابتلاء .

وَالْإِجْرَامُ : ارْتِكَابُ الْجُرْمِ وَهُوَ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ ، وَأَعْظَمُ الإجرام الْكُفْرُ .

وفي قوله : ((كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُون)) إشارة إلى إجرام المجرمين في محاربتهم الدعوة وصدهم عن سبيل الله وأذيتهم المؤمنين فقد كانوا يؤذون المؤمنين في نواديهم ومنتدياتهم وأقوالهم وأقلامهم ، وهذا من التطفيف ، وتفكر كيف صارت أبواق الإعلام بإدارة اليهود والنصارى يزخرفون الباطل ويغيرون الحقائق ممزوجةً بسبل الإغراء والغواية مصدرين المرأة سلعة لأغراضهم وحالهم حال القائل

وكنتُ امرأ من جند إبليسَ حتى ارتقى * بي الحالُ فصار إبليسُ من جندي

ورحم الله مالك بن دينار إذ قال : ((إِنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ ، وَذَلِكَ أَنِّي إِذَا تَعَوَّذْتُ بالله ذهب عني شياطين الْجِنِّ ، وَشَيْطَانُ الْإِنْسِ يَجِيئُنِي فَيَجُرُّنِي إِلَى الْمَعَاصِي عِيَانًا)) لذلك كان من خطورتهم أنْ قال تعالى : ((يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)) أي لأجل أنْ يُغروهم بذلك .

ولذا فنقول : فلينتبه أولئك الرابضون كلَّ يوم الساعاتِ الطوال أمام التلفاز مغترين بالدنيا متعلقين بأهدابها الواهية وحبالها البالية فأياك ثم إياك وأنت تحفظ سورة ((ويل للمطففين)) أنْ تضيّع الأوقات وتعطّل الساعات ، وتهدر الأعمار مع هذا الإعلام المضلل ، وهم الذين يسمونه بالسلطة الرابعة ؛ فهم يزينون به الباطل لأسيادهم من اليهود والنصارى وإبليس ، وهم يطففون

أمة محمد . وتأمل وأنت تستمع لقوله تعالى في سورة الأنعام (وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (وتأمل ما بعدها) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (وتأمل ما بعدها) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (وتأمل ما بعدها) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (وتأمل ما بعدها) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) فاحذر مجالس الكذب والخيانة بأنواعها وكن من أهل الآخرة أولي العقول الوافية والألباب الرزينة لا يغترون بعبارات الباطل ولا تغريهم التمويهاتُ الضارة ، بل همتهم مصروفة إلى الحق قال الشيخ عبد الحميد طهماز : ((ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شراك الضالين المضلين فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوق المزخرف الذي يخفون في طياته السم الناقع فما أكثر ما يخلطون السم بالدسم فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور وكأني بالآية قد نزلت هذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطان كبير وتأثير شديد على الناس ، لقد وجه شياطينُ الإنس من أعداء الإنسانية بوحي من شياطين الجن كثيراً من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم ، وقد ملئوها بالبرامج المزخرفة المموهة التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم وإشاعة الفواحش والفجور في مجتماعتهم)).

ثم قال تعالى : ((وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُون)) وفيه الإشارة إلى أنَّ الهمز واللمز لصيقٌ بالمجرمين فهم إذا مرّوا بالمؤمنين يتغامزون مستهزئين ، وإذا مرَّ بهم المؤمنون يتغامزون بهم ، وقد نزلت سورة كاملة تحذر من الهمز واللمز قال تعالى : ((وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة)) .

((وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُون)) يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون إليهم .

ثم قال تعالى : ((وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)) والانقلاب معناه الرجوع إلى معتاد يذهب إليه الإنسان ، وجاء النص القرآني (إِلَى أَهْلِهِمُ) لأنَّ هؤلاء المجرمين يُشركون أهليهم بالإجرام ؛ إذ صار الإجرام جزءاً من حياتهم .

وفي قوله : (فَكِهِينَ) تذكير بنعم الله التي تستوجب الشكر فهم ينقلبون متنعمين أي : ينقلبون إلى بيوتهم ، وفيها المآكل والمشارب والمطاعم والخيرات فهم كما قال تعالى : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)) .

((وإذا انقلبوا)) رجعوا ((إلى أهلهم)) أصحابهم وذويهم ((انقلبوا فكهين)) مُعجبين بما هم فيه يتفكَّهون بذكر المؤمنين بالسوء .

ثم قال تعالى : ((وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ)) وهذا شأن المجرمين في كل زمان ومكان يطلقون ألفاظ السوء على الذين آمنوا افتراءً وتضليلاً ، فحكمهم على المؤمنين بالضلال يدل على نهاية الغرور والجهل .

((وما أرسلوا)) يعني : الكفَّار ((عليهم)) على المؤمنين ((حافظين)) لأعمالهم موكلين بأموالهم .

تدبر جيداً : ((وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)) ففي هذا تشنيع لفعلهم ؛ أنهم لم يكلفوا بهذه المهمة، وذلك أنَّ الإنسان إذا فاته حق الله وقع بالإثم ، والواجب دعوة الناس إلى الحق بالحق والبشر لم يكلفوا بأنْ يكونوا حافظين لأعمال الآخرين ، قال تعالى : ((فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)) أما الحافظون فهم الملائكة جعلهم الله حفظة لأعمال بني آدم يحفظونها ويسجلونها .

ثم ختمت السورة بقوله : ((فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)) .

((فاليوم)) يعني : يوم القيامة ((الذين آمنوا من الكفار يضحكون)) كما ضحكوا منهم في الدُّنيا يتنعمون بالنظر إليهم ، وهم يعذّبون وفاءً بما طُفف من حقهم يوم القيامة .

فَالْيَوْمَ هكذا جاء النص ليبين للمؤمن أنه في الدنيا لا يضحك على أحد إنما ووظيفة المؤمن الرئيسة في هذه الدنيا الدعوة والهداية إلى الله ، وضحكُ الذين آمنوا ؛ لفوزهم ونجاتهم وأنهم وجدوا ما وعدهم الله حقّاً ، وأنَّ الكفار لم يجدوا ما منَّتهم أنفسُهم .

والْأَرَائِكِ : جمع أريكة ، وهي السرير المحجل ، وهو يقابل ما كان عليه الكفار في الدنيا : ((وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)) أمّا يوم القيامة دار الجزاء والنعيم ، فالمؤمنون هم المنعمون هم وأزواجهم قال تعالى : ((هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ)) يتنعمون باجتماعهم كما

قال تعالى : ((جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار)) .

ويتنعمون بالنظر إلى وجه الله الكريم ، ويتنعمون بالنظر إلى بعضهم بعضاً ويُنعّمون بالحبور والسرور من نعيم الجنة والمزيد الذي يزيدهم الله ومنه ، وينظرون إلى المجرمين ، وهم يعذّبون وينظرون إلى الذين آذوهم في الدنيا وطففوا حقوقهم .

وهذا المعنى الأخير أخذ بسبب تكرار ذكر الأرائك مع أنَّ السورة في بيان أمر المطففين وبسبب قرنها بقوله تعالى : ((هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)) أي : يشاهدون ذلك ، وهم يعلمون يقيناً أنَّه قد ثوب الكفار ، ولكن يراه المؤمنون عياناً بعد ما آمنوا به في قلوبهم بياناً فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله. ويستعمل في الخير والشر.

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية المؤمنين ، وتبشيرهم بأنَّهم سيأخذون بثأرهم من المشركين عما قريب.. وأنهم- أي : المؤمنين- سيكونون يوم القيامة على سرر قد فرشت بأجمل الفراش ، وأنَّهم لا ينظرون إلا إلى ما يسرهم ويبهج نفوسهم .

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولشايخه وللمسلمين

دار الحديث الفقهية
د. ماهر ياسين الفحل